دوركيم
والاتجاه الاجتماعى فى التربية

بقلم

الدكتور عبد العزيز عزت

تعددت الاتجاهات فى التربية فى العهد الحديث ، فهناك الاتجاه النفسى البحت ويتزعمه وليم جيمس ومن نهج نهجه ، وهناك الاتجاه النفسى الاجتماعى ويمثله جون ديوى ومن نحا نحوه ، وهناك الاتجاه الفلسفى السياسى وتعبر عنه أبحاث جانتيل Gentile ومن سار على نمطه ، وهناك الاتجاه الحيوى ويقول به الكسيس كاريل Carrel ومتبعوه ، وهناك الاتجاه النفسى العملى ويمثله كثيرون مثل مدام منسورى والأستاذ كلاباريد وبينيه ومن شابههم فى الاهتمام بالتربية الواقعية(١) وأخيراً ينفرد دوركيم بوضع أسس الاتجاه الاجتماعى فى التربية وإنشاء علم الاجتماع التربوى (٢) .

اهتم دوركيم بالتربية فى بادئ أمره ومن التربية انتقل إلى دراسة علم الاجتماع فمنذ سنة ١٨٨٧ تصدى وهو فى جامعة بردو لتدريس التربية وكان يلقى فيها محاضرة كل أسبوع وكان أغلب مستمعيه من رجال التعليم ، واستمر على هذا النحو حتى سنة ١٩٠٢ عند ما انتدب فى السربون ليحل محل الأستاذ الشهير بويسون فى كرسى التربية وعين نهائياً فى هذا الكرسى فى سنة ١٩٠٦ . وإلى مماته فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٧ لم ينس أهمية التربية بجانب علم الاجتماع فكانت تشغل ثلث مجهوده وأحياناً الثلثين فى صورة محاضرات خاصة فى السربون أو عامة يلقيها على رجال التعليم وعلى طلبة مدرسة المعلمين العليا بباريس (٣) .

لم تطبع أغلب مؤلفات دوركيم فى التربية إبان حياته ، وإنما أخرجها له بعد مماته تلاميذه من أساتذة علم الاجتماع فى السربون ، منهم خليفته فيها الأستاذ فوكونيه والأستاذ هلفاكس فطبع له الأول كتاب « التربية وعلم الاجتماع » فى

(١) Hubert - Histoire de la pédagogie, Paris 1949, p.p. 311, 312.
(٢) Ibid.
(٣) Durkheim - Educatin et sociologie, Paris 1926, p. 1.

والقرن السابع والثامن والتاسع عشر فى فرنسا وعند بعض المفكرين فى إيطاليا وألمانيا وإنجلترا . وأخيراً له مخطوط يعالج فيه آراء بستالوزى وهربار . وهذا إنتاج ضخم فى التربية يدل على كبير اهتمامه بها وأنها كانت الباب الأول الذى ولج منه علم الاجتماع إلى السربون ولكن علم الاجتماع لم ينكر لها هذا الجميل فجعلها فرعاً مهما من فروعه باسم علم الاجتماع التربوى فكانت التربية بهذا الميدان الأول الذى اصطبغ بالروح الاجتماعية من بين سائر الميادين الاجتماعية الأخرى . فعلم الاجتماع إذن ابتدأ فى السربون فى صورة تربوية . وأصبح فرع علم الاجتماع التربوى أقدم فروعه والباب الأول الذى سبق فى تأسيسه سائر أبواب علم الاجتماع . فما هو الموضوع الذى يمحصه هذا العلم ؟ وما هو الهدف الذى يرمى إليه ؟ .

أما من ناحية الموضوع ، فدوركيم يريد دراسة التربية بوصفها نظاماً اجتماعيا . ومعنى هذا أربعة أشياء : أن التربية نظام تلقائى ، وعام ، وخارجى ، وملزم .

أما كونها نظام تلقائى فهذا يعنى أن لا صلة لها بطبيعة الإنسان النفسية والحيوية وإنما هى تقوم على طبيعته الاجتماعية . نعم إن للإنسان طبيعته النفسية ولا بد له من أن يفكر ويشعر ويريد — الخ وله أيضاً طبيعته الحيوية فلا بد له من أن يأكل ويشرب وينام — الخ ولكن له بعد ذلك طبيعة ثالثة هى الطبيعة الاجتماعية فلابد له من دين يهديه ، ولغة يتكلم بها ، واسرة تأويه ، وتربية تكونه وتحضره . . . الخ . فالإنسان له ثلاث طبائع أساسية ومستقلة ويجب ألا تختلط ببعضها البعض وكل منها تعبر عن تلقائية معينة فيه[1].

ولما كانت التربية ظاهرة اجتماعية لها وجودها الذاتى الاجتماعى وجب ألا تلحق دراستها بالنفس ولا بعلم النفس ولا بالحياة وعلم الحياة ، لأنها ليست ظاهرة فردية ينشئها المفكر كوليم جيمس أو جيمس ميل — الخ لتعليم الفرد كيف يكون سيعداً من الوجهة النفسية وكيف يكون وسيلة لأسعاد غيره من حوله . ولا يكتبها هربرت سبنسر ليعلم الفرد كيف يكون سعيداً فى الحياة وكيف يجب أن يناضل ويكافح فى سبيلها وكيف يجب أنه يتبين أن الأصلح للبقاء والارتقاء . . . الخ .

---

(١) دكتور على عبد الواحد وافى : « اللغة والمجتمع » — مصر ١٩٤٦

Durkheim, Règles, Paris 1927., +

إن السعادة النفسية ليست واحدة فى كل زمان وفى كل مكان ولا تتعلق بالفرد فى ذاته ولا تصدر عن فرد مفكر كمن سبقت الإشارة إليهم وإنما هى ظاهرة اجتماعية تختلف حسب السنن الاجتماعية الأخلاقية التى تتبدل من فترة لفترة ومن مجتمع لآخر . كذلك مستوى الحياة الذى يناضل من أجله الإنسان ليس بشئ فردى وإنما هو شئ اجتماعى يختلف حسب القيم الاجتماعية التى يضعها المجتمع فى زمان معين ومكان معين . فما يقوله علماء النفس والحياة ما هو فى نظر دوركيم إلا افتراضات شخصية تبتعد كل البعد عن تصوير الحقائق التربوية الواقعة بين الناس فى الزمان والمكان(١) .

إن التربية لا يضعها شخص لشخص وإنما يضعها المجتمع لنفسه . فهى ليست من صنع فرد معين وإنما هى من صنع المجتمع جهزتها الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة . فهى نتيجة لتفاعل اجتماعى فى الماضى والحاضر وتمثل ضرورة اجتماعية لا بد من قيامها فى المجتمعات البشرية وشأنها شأن ظهور : أكسيد الحديد من تفاعل الحديد مع الرطوبة والهواء فهى شئ تلقائى اجتماعى كما أن أكسيد الحديد شئ تلقائى طبيعى .

والصفة الثانية للتربية عند دوركيم هى أنها خارجية . فهى سابقة لوجود الأفراد لأنهم يولدون ويجدونها قائمة فى المجتمع بشكل معين . وهى بالنسبة إليهم « كالقالب » يلبسونه فيشكلهم على صورته وهى تدوم فى المجتمع من جيل إلى جيل ولاتتأثر بتغير الأفراد ، وإنما هى مستمرة دائماً فى البقاء بشكل أو بآخر ومصداق هذا ثلاثة أشياء : أن نظم التربية مدونة ومسطرة ولها كتب ودساتير موضوعة تثبت وتحدد وجودها الواقعى . وأنها أحياناً تكون فى شكل غير مكتوب وإنما محفوظ فى الصدور فى بعض المجتمعات(٢) ، وخاصة القديمة منها والمتأخرة متمثلة فى الأصول العامة الواجب معرفتها بالنسبة لحياة المجتمع فى كله كالعادات العامة والمعتقدات السائدة ونواحى العرف المسيطر . . . الخ وفى أصول خاصة ببعض الأفراد الذين لهم أهميتهم فى المجتمع كالكهنة ورجال الحرب والفنانين الخ وأحياناً تكون التربية وخاصة فى الأمم الراقية فى شكل تيار اجتماعى ، وموجات

(١) Durkheim - Education et Sociologie, Paris 1924, P.P. 38, 39.
(٢) Durkheim, Règles, P.P. 12, 13.

فعلية تظهر فى المجتمع لتوجه نظامه وجهة معينة ، كالوجهة القومية مثلا فى ألمانيا وإيطاليا فيما قبل الحرب الأخيرة أو الوجهة الإنسانية أو الوجهة المحلية . . . الخ وتعرف هذه بموجات الإصلاح التربوى . فالتربية إذن شئ قائم واقع بالفعل فى المجتمعات البشرية وليست ظاهرة نفسية تعتمد فى ظهورها وبقائها على تصورات بعض الأفراد وهم فلاسفة التربية .

والصفة الثالثة أن التربية نظام عام[١] . وهذه العمومية لها ثلاثة أشكال : عمومية فى داخل المجتمع الواحد . فكل مجتمع معين له نظام قائم للتربية يسود فيه ، ولا يفلت منه أحد فيه . وهناك عمومية فى داخل المجتمعات التى من نوع واحد ، فالتربية تتشابه فى نظامها العام بالنسبة للشكل الاجتماعى العام ، فهى مثلا واحدة تقريباً عند الأقوام التى تعيش فى عشائر توتمية وعند من يعيشون فى قبائل ، وعند من يعيشون مثلنا فى أمم بكونها فى حالتنا تقوم على الأسس الديمقراطية وخلق الفرد كمواطن صالح وكمختص نابه فى مهنة معينة . وهناك عمومية فى مجتمعات من أنواع مختلفة وهى عمومية تطورية ترسم لنا حياة التربية فى الزمان ولكن الزمان هنا ليس بزمان تاريخى وإنما زمان اجتماعى يوضح لنا تطور التربية فى الأشكال الاجتماعية المتباينة ذاهبة من الأشكال البسيطة إلى الأشكال المعقدة فيعرف مثلا الأدوار التى مرت بها فى المجتمعات المتأخرة ثم المجتمعات التاريخية ثم المجتمعات المتحضرة الحديثة[٢].

أما عن الصفة الرابعة فهى صفة الإلزام — وهى أهم الصفات طرا[٣] ، فالتربية تضغط على الأفراد وتجبرهم على الأخذ بسنن وقواعد معينة أقرها المجتمع ويفرضها عليهم . فهى لا تتشكل حسب أهواء فلاسفة التربية وإنما حسب ما يرسمه لها المجتمع من اتجاهات . حتى أن الأطفال إذا لم يشبوا حسب هذه السنن والقواعد لاقوا عقابهم فى كبرهم ، وهو عدم إمكانهم الانسجام مع غيرهم فيه . لأنهم لقنوا مبادئ مخالفة وخاصة ، وتبدو مبادئهم فى نظر غيرهم غير سوية وشاذة . وبناء عليه هناك فى كل مجتمع وفى فترة معينة من حياته

---

(١) دكتور على عبد الواحد وافى — الكتاب السابق . + Règles, P. 15.

(٢) الدكتور عبد العزيز عزت — راء فى طبيعة الظواهر الاجتماعية — مصر ١٩٤٩ ص ٢٣—٣٢

(٣) Education et Sociologie, P. 41.

نوع غالب للتربية ولاسبيل للحياد عنه والفرار منه وإنما هو ملزم والخضوع له لا مفر منه وإلا كانت حياة الأفراد نشازاً بالنسبة لحياة الآخرين فيه . ويتمثل هذا الإلزام التربوى وماله من جزاء فى القوانين التربوية الوضعية ، وفى العادات والعرف والتقاليد الخاصة بنشأة الأطفال وآدابهم وعقاب الأول مادى وعقاب الثانى أدبى .

وهذا الإلزام لا يقضى على حرية الفرد ولا يخلق منه عبداً للمجتمع ذلك لأن الإلزام فطرى ولا مناص للفرد أن يتحاشاه لأنه كائن اجتماعى بسليقته ، فهو إلزام مقبول فى نظره وهناك تناسب بين طبيعة التربية بأنها ملزمة وبين طبيعة الفرد بأنه لا يمكن أن يحيا إلا فى جماعة . فهو إلزام مشروع ولاغضاضة منه وخاصة وأنه لا يقع على فرد أو أفراد بالذات فى المجتمع وإنما هو عام بالنسبة لأعضائه أجمعين(١). وأن خضوعهم لهذا النظام فى صالحهم لأنه يرفع من مستواهم الذاتى إلى المستوى الحضارى العام للمجتمع فتزداد قيمتهم الأدبية . ولهذا هناك تساند وتعاطف واطمئنان من ناحية الأفراد للأخذ بنظام التربية فى المجتمع وهو لا يمنعهم إطلاقاً أن يجددوا فيه إذا شاؤوا ولكن بالقدر الذى يسمح به المجتمع(٢).

ويتضح من هذا أنه إلزام لا يكبل الأفراد ولا يجعل حياتهم ثقيلة لا بهجة فيها ولا رواء وإنما هو موجود حقاً فى المجتمع ولكنه غير محسوس وحاله كحال الضغط الجوى فى عالم الطبيعة . فهذا ظاهرة كونيه قائمة لا يشعر بها الناس عادة فى حياتهم الجارية . ولكن يظهر الضغط الاجتماعى فى شكل واضح أحياناً إذا حاول الأفراد الخروج على قواعد التربية المألوفة السوية وفى هذه الحالة يقف لهم بالمرصاد لأنه يبغى استمرار احترام السنن التربوية القائمة فى المجتمع ليتحقق الاستقرار الاجتماعى فى حياة الناس ، وهذا فى صالح الأفراد ، ولهذا يصف دوركيم الإلزام بأنه إلزام محبوب ، لأن الأفراد يرون فى الخضوع له نوعاً من الواجب وأن هذا الواجب فيه الخير لهم .

إن الإلزام ذو حدين متناقضين فى الظاهر لأن ضغطه يتضمن بطبيعته الجاذبية . والجاذبية هنا لا يريد بها دوركيم حالة تخديرية ينساق فيها المتعلم تحت تأثير التلقين والتقليد بشكل آلى فتخلق منه شخصاً سالباً لا يملأ دوره

---

(١) Règles, P. 126.

(٢) Règles, P.P. 124 - 129 .Préface 2e édition, P. 23.

فى الحياة الاجتماعية كما يتوهم تارد Tarde[١] . ولا يريد بها كذلك الإغراء الذى يفترضه للمتعلم كل من ابيقور ومنتانى عن طريق اللذة والمنفعة الذاتية . ولا يريد أن يشب الطفل وكله روح الصراع والنضال ليثبت أن البقاء للأصلح فى الحياة كما يتصور هربرت سبنسر . فدوركيم لا يسعى وراء تربية تجعل الطفل تابعاً أو مسوداً أو أنانياً أو جارحا يعتدى على غيره فى سبيل النضال فى الحياة وإنما يسعى وراء تكوين كائن يشب على إدراك معنى الواجب . والواجب هنا لا يفهم على الطريقة الميتافيزيقية التى نجدها عند كانت ، بأنه أوامر غير مشروطة تنصب على الفرد من داخلية نفسه بالسليقة والفطرة الإنسانية العامة باعتباره إنساناً لا ينتمى لزمان معين ولا لمكان معين . وإنما الواجب عند دوركيم يفهم فهما اجتماعياً كأنه شئ مكتسب من المحيط الخارجى فيربط الإنسان بزمان معين ومكان معين ويتخذ بهذا معنى الخضوع لسلطة المجتمع .

ومن هذا يتضح أن التربية فى حد ذاتها سلطة اجتماعية ، وتتمثل هذه السلطة عند دوركيم فى ناحيتين : أولا فى تربية عامة عقلية وجسمية واخلاقية تربط الفرد بالمجتمع فى ذاته فيشعر الفرد أنه متماسك ومتضامن معه ، وأنه مترابط مع تراث اجتماعى عام له ماضيه وحاضره ومستقبله . فهى تربية تردد صدى الماضى وتثير ذكرياته السارة والمؤلمة ، وتوضح خطط الحاضر وآمال المستقبل ليتداخل الفرد فى وسطه الاجتماعى العام وينعكس العقل الجمعى فى عقله الفردى .

ثانياً تربية خاصة عقلية وجسمية وأخلاقية أيضاً تربط الفرد بمحيط اجتماعى ضيق . فهناك بجانب ارتباط الفرد بمجتمعه العام ارتباطه بالهيئات فيه . فهو ينتمى مثلا إلى طبقة اجتماعية معينة وإلى اسرة خاصة وإلى مهنة محددة . . . الخ ولكل هيئة من هذه قواعد وأصول للتفكير والمعاملة بدونها لا يمكن أن يكون الفرد عضواً نافعاً منتجاً له احترامه فيها . ومن هنا يجد الفرد نفسه أمام سلطة اجتماعية تضطره إلى دراسة الأصول الاجتماعية للحياة فى هذه الهيئات الاجتماعية الخاصة .

وهاتان الناحيتان العامة والخاصة للتربية الاجتماعية تترددان فى سائر ألوان المجتمعات البشرية سواء كانت متأخرة أم تاريخية قديمة أم متحضرة حديثة[٢].

ففى الجماعات المتأخرة تنحصر التربية العامة عند دوركيم فى تربية دينية لأن

---

(١) Education et Sociologie, P. 67

(٢) دكتور عبد العزيز عزت – رأى فى طبيعة المجتمع البشرى – مصر ١٩٤٩ ص ٢٣

الدين هو المظهر الأساسى المسيطر على سائر نواحى حياة الناس الاجتماعية(١) وهى تشمل تلقين المعتقدات والقصص والخرافات الدينية والحكم والأمثال . . الخ وهذا ما يتعلق بالناحية العقلية والأخلاقية أما الناحية الجسمية فتتخلص فى اتقان تأدية الطقوس والأفعال والحركات اللازم تحققها فى مناسبات معينة كالأعياد والمواسم وغير ذلك(٢). أما عن التربية الخاصة فتتناول معرفة وتحقيق بعض الفنون العملية الضرورية لحياة الأسرة مثل تعلم الإجادة فى الصيد بالنسبة لبعض الرجال ، والمهارة فى حياكة الملابس بالنسبة لبعض النساء ، والدقة فى الوشم بالنسبة لبعض الرجال والنساء على السواء . . الخ والذين يمارسون هذه الفنون لا يمكن أن نسميهم مختصين وأن هناك تقسيم للعمل كما هو الحال فى المجتمعات الراقية(٣) . وإنما هى إجادة فردية محضة لا تبغى الكسب والتجارة وإنما ترمى إلى غرض مشترك جمعى هو إشباع حاجات الأسرة المادية والروحية .

أما فى المجتمعات التاريخية القديمة كاليونانيين القدماء والرومان والمسيحيين فى القرون الوسطى ، فيرى دوركيم أن التربية العامة كانت لها المسحة الدينية فكان لكل مدينة آلهتها الواجب عليهم أجمعين احترامها وتقديسها وهذا عند الأولين لا فرق بين يونانى أو رومانى حر وسيد وبين الرقيق المستعبد منهم . كذلك فى القرون الوسطى تعددت الطبقات فكانت هناك طبقة رجال الدين ثم طبقة الملوك والأمراء ثم طبقة النبلاء ثم طبقة الأشراف مستأجرى الأراضى لحسابهم الخاص ثم طبقة التابعين الملحقين بالأرض(٦) ثم طبقة الأرقاء(٧) . وكل هذه الطبقات على اختلافها كانت تخضع لتربية واحدة عامة هى التربية الدينية المسيحية(٨) فى نواحيها العقلية والجسمية والأخلاقية .

بينما انصبت التربية الخاصة عند قدماء اليونانيين والرومان وعند أمراء ونبلاء وإشراف القرون الوسطى على الأعمال المشرفة كالصيد والحروب والأعمال العقلية

---

(١) Durkheim — A.S., I., 2—3.

(٢) Mauss. A.S. I., IX.

(٣) Education et Sociologie, P. 46.

(٤) Goldenweiser — Anthropology, New York 1937, Chap. Ix

(٥) Education et Sociologie, P. 46.

(٦) Robinson — The Ordeal of civilization, New York 1926, P.P. 107, 115.

(٧) Agburn Ninkoff A. Handbook of Sociology, New York a 1947, P. 211.

(٨) Education et Sociologie ,P. 47.

واختصت الطبقات الأخرى بالأعمال اليدوية فكان أفراد الطبقات الدنيا يقومون مقام الآلة فى عهدنا الحديث و بهذا تشكلت التربية الخاصة عقلية كانت أم جسمية أم اخلاقية بالمسحة الطبقية فأهل كل طبقة يتعلمون ما يناسب قدرهم من الأعمال .

أما فى الأمم الحديثة فقامت التربية العامة على أسس الديمقراطية وأن الناس سواء فى ضرورة الإلمام بالمعارف اللازمة لإخراج الإنسان من ظلمات الجهل إلى نور الإدراك السليم وأنها لا تقل فى أهميتها عن الماء والهواء فهى عنصر أولى لحياة الإنسان المتمدن دون تمييز بين غنى وفقير أو عظيم ووضيع . فالكل أبناء لبلد واحد أظلتهم سماء واحدة وغذتهم أرض واحدة . فالتربية ليست امتيازاً لطبقة معينة وإنما هى غذاء روحى لأغناء عنه لكل مواطن . ولهذا أصبح التعليم الابتدائى والثانوى والجامعى فى بعض البلاد الراقية الديمقراطية كفرنسا مثلا بالمجان وهذا حتى تتكافأ الفرص فى التعليم لجميع الناس فى المجتمع . وغرض هذه التربية خلق التشابه فى المعرفة العقلية والجسمية والأخلاقية عند المواطنين أجمعين .

أما التربية الخاصة فهى عند دوركيم تربية مهنية . ذلك لأن المجتمعات الحديثة أكبر حجماً من المجتمعات المتأخرة والقديمة وأغزر كثافة [١] وأشد نشاطاً وإنتاجاً وهذا ما دعا إلى انقسامها إلى هيئات متباينة كل لها اختصاصاتها ، وبهذا اتسع نطاق تقسيم العمل فيها وتعددت أبوابه وأصبح التخصص هو محور الحياة الاجتماعية فى العهد الحديث[٢]. وهى تربية تمهد الفرد عقلياً وجسمياً وأخلاقياً لملأ وظيفة معينة فى المجتمع فيكون بذلك عضواً نافعاً فيه . وهى تشمل معرفة الأصول المهنية نظرياً وعملياً وتشمل كذلك معرفة الأخلاق المهنية[٣]. فغرضها ليس أنانياً وهو منفعة الفرد ليتكسب وإنما غرضها اجتماعى هو كيف يترابط الفرد مع الهيئة التى يعمل فيها وكيف يتبكر ويخطو بمهنته إلى الأمام ، فتخلق عند الفرد الذاتية الاجتماعية التى ترمى إلى رفع مستوى المجتمع الحضارى بإدراك معنى التماسك فيما بينه وبين هيئته المهنية وفيما بينها وبين غيرها من الهيئات وفيما بينها وبين المجتمع كله كوحدة اجتماعية كبرى .

---

(١) Durkheim, Règles, Chap. IV.

(٢) Durkheim, De la division du travail, Paris 1926, Chap. VI.

(٣) Ibid., préface de la 2e édition.

وينتج مما تقدم أن التربية عامل يقوم على التعميم والتخصيص لأن الفرد له محيط واسع يعيش فيه هو المجتمع فى كله ، وله محيط ضيق تارة يكون أسرة وتارة طبقة وتارة مهنة . — الخ . ويضع دوركيم الأهمية كل الأهمية للتربية العامة لأن مهمتها هى القضاء على الفروق الاجتماعية فى التعليم وخلق المساواة فى المعرفة بين الأفراد فهى عامل كبير من عوامل الوفاق والاستقرار والرقى فى المجتمع(١). ومن جماع التربيتين تخلق عند الفرد الروح الاجتماعية الصحيحة . فما هى هذه الروح الاجتماعية التى يهدف إليها الاتجاه الاجتماعى فى التربية أو علم الاجتماع التربوى ؟

يميز دوركيم فى الفرد روحين : روحاً فردية وروحاً اجتماعية(٢) . الروح الفردية تنطوى على حالات النفس الداخلية وشئون الحياة الشخصية . بينما الروح الاجتماعية هى مجموع أساليب المعارف والمشاعر والعادات التى نتلقاها فى محيطنا العام فى المجتمع وفى محيطنا الخاص كالأسرة والطبقة والمهنة . . . الخ . والتربية الاجتماعية من شأنها أنها تقاوم الروح الأولى الفردية وتعمل على خلق الروح الثانية وغرسها بناحيتيها فى النشء . ذلك لأن الروح الفردية تنزع بفطرتها إلى الجموح والأنانية وعدم الخضوع للنظام فهى روح غير اتباعية . ولهذا كانت مهمة التربية محاربة هذه الروح ووضع حد لها . وإيجاد الروح الاجتماعية عند الفرد . وهى مهمة عظيمة القدر لأنها ترمى إلى خلق شخصية جديدة عنده لم تكن فيه عند ولادته هى الشخصية الاجتماعية . ومن هذا يتضح أن مهمة التربية مهمة فاعلة وليست مهمة سالبة ، فهى لا تترك الفرد يبرز من نفسه سجاياه وما تنطوى عليه طبيعته الخاصة كما يريد هذا جان جاك روسو (٣) . لأن هذه الطبيعة الفردية لا تتضمن إلا كل اضطراب وفوضى(٤) . فهى إذن تربية « خالقة »(٥) تضيف شيئاً جديداً هو غرس التراث الاجتماعى العام والخاص فى الاطفال . فهى نوع من الوراثة الاجتماعية تنقل تراث السلف إلى الخلف . وهو تراث يعلو على القدر الفردى لما يحتويه من النزعات الأخلاقية والاجتماعية السامية التى تدفع الفرد إلى محبة الغير والتعاون معه والتى تضطره إلى الإحساس بحاجته إلى المجتمع فى كله وفى هيئاته المختلفة .

---

(١) Education et Sociologie, P. 118.
(٢) Ibid., P. 48.
(٣) Rousseau - L'Emile (édition Hachette), P.P. 4, 5, 6, 1
(٤) Educations et Sociologie, 51, 50.
(٥) Ibid., P. 51.

ولقد توهم بعض الناس أن هذه التربية الاجتماعية تنحصر فقط فى التربية الأخلاقية . فهى وحدها التى يمكن أن تكون لها الصفة الاجتماعية لأنها تربية تضغط على الأفراد وتلزمهم بأوامر ونواه خارجية وموجودة فى المجتمع . وأنها تارة تكون عامة كالعادات والعرف فى المحيط الاجتماعى بأكمله وتارة تكون خاصة كالتقاليد فى الهيئات الخاصة (١) وتوهموا كذلك أنها لا تتناول التربية العقلية والجسمية لأنهما فى نظرهم مظهران فطريان فى الإنسان يسعى إليهما من تلقاءنفسهلما يجنى منهمامن فائدة ونفع شخصى فى حياته الذاتية . فالاهتمام بالأمور الجسمية يكسب الفرد الصحة والانتباه والقوة والقدرة على العمل ، والاهتمام بالأمور العقلية يكشف للإنسان الغطاء عن طبائع الأشياء ويساعده فى استغلالها لصالحه ولهذا كانت التربية العقلية والجسمية فى خارج حدود التربية الاجتماعية .

ولكن هذا توهم خاطىء ، ويرى دوركيم أن التربية الاجتماعية تشمل على السواء التربية الأخلاقية والتربية العقلية والتربية الجسمية . وإذا كانت الصفة الاجتماعية بارزة واضحة فى الأولى فالثانية والثالثة لهما الصفة نفسها ويخضعان للعقل الجمعى المسيطر فى المجتمعات البشرية . ومصداق ذلك أن هناك مجتمعات كمجتمعات القرون الوسطى فى أوروبا لم يسع الفرد بفطرته فيها إلى التربية العقلية والتربية الجسمية وذلك لسبب التيار الاجتماعى السائد فيها وهو تيار الدين المسيحى الذى أوهم الناس فى ذلك الحين أن العقل البشرى ليست له القدرة على معرفة أسرار الوجود وأنه عقل قاصر لاقترافه الخطيئة الأولى ، كذلك الاهتمام بتربية الجسم عُدّ معصية لأن معنى ذلك سيطرة الشهوات والانفعالات التى تؤدى إلى الأطماع فى الحياة الدنيا وإلى كل ما يعكر صفو الحياة عند الإنسان ولهذا وجب عليه أن يتطهر ويبتعد عن ذلك وينصرف إلى أساليب الزهد والتقشف والإقلال من حاجاته حتى لا تثار فيه غرائز النفس والبدن .

والأمر على عكس ذلك فى المجتمعات التى أتت فيما بعد . فاتجه الإنسان فيها إلى الاهتمام بالتربية العقلية وإلى محبته للعلم والمعرفة بنفسه وبالعالم الكونى وبالعالم الاجتماعى . وخلقت الثقة بقدرة العقل ولهذا نجد نظرية المعرفة عند أبى التفكير الحديث ديكارت Descartes تسبق نظرية الجوهر التى أخذ بها التفكير القديم

(١) الدكتور عبد العزيز عزت – السلطة فى المجتمع – مصر ١٩٤٧ ص ٣٢ – ٥٤

وخاصة أرسطو ومن نحا نحوه من المفكرين المدرسيين إبان القرون الوسطى والتى أبعدتهم عن فهم الأشياء فى ذاتها وأصبح التفكير بفضل ذلك التجديد الديكارتى « كميا » يضع للرياضة أهميتها « لا كيفيا » يرتكز على الصفات اللفظية والمعانى الفكرية(١) . كذلك أتجه الإنسان إلى الاهتمام بشئون بدنه وصحة جسمه عند ما ابتدأت الأمم الحديثة تتوحد منذ القرن السادس عشر(٢) وتدافع عن نفسها وتدعم كيانها الوطنى الخاص مبتعدة عن فكرة العالمية المسيحية التى سادت فى القرون الوسطى فنرى بزوغ الجهاد القومى فى الأمم الأوروبية تحت تأثير عوامل اجتماعية مختلفة منها العامل الدينى القومى ومنها العامل الاقتصادى والسياسى . . . الخ ونرى منها أمماً قوية فى أجسامها ممثلة فى جيوشها (٣) وقوتها الحربية كروسيا فى عهد بطرس الأكبر وفرنسا فى عهد لويس الرابع عشر . . . الخ وكل هذا ينتهى بنا إلى أن كلا من التربية العقلية والجسمية لا تشتق من طبيعة الفرد أصلا على طريقة جان جاك روسو وإنما هما مظهران من مظاهر الجماعة ومرتبطان كل الارتباط بطبيعة المجتمعات البشرية فى الزمان والمكان وما يسود فيها من العوامل والنزعات الاجتماعية .

أما بعد :

فالتربية نظام اجتماعى ينشأ تلقائياً فى المجتمعات البشرية . ويظهر الأفراد فيجدونه قائماً فيها . فهو نظام خارجى سابق لوجودهم . وهو أيضاً نظام عام لا يخلو منه مجتمع من المجتمعات البشرية . ويأخذ به الأفراد إجبارياً لأن الجزاء ينتظرهم إذا خرجوا عن حدوده . ولهذا كانت التربية نظاماً يضعه المجتمع لنفسه خاضعاً فى ذلك لظروف الزمان والمكان . وليست بنظام يضعه فرد لفرد ونقصد بذلك أنها ليست فلسفة يضعها مفكر معين لتكوين إنسان مجرد ميتافيزيقى لا يرتبط بزمان معين ومكان معين . وأن التربية فى نهاية الأمر تعميم وتخصيص لأنها من جهة تربط الفرد بالتراث العام للمجتمع فى سائر مظاهره ، ومن جهة أخرى تربطه بالمحيط الخاص الذى يعيش فيه سواء كان ذلك طبقة اجتماعية أم أسرة أم مهنة . . . الخ . وأن الغرض الذى تهدف إليه التربية غرض اجتماعى أيضاً هو نزع الأنانية المتأصلة فى الفرد وجعله غيريا . والغيرية هنا ليست غيرية إنسانية مطلقة على طريقة أوجيست كونت(٤)

---

(١) Descartes - Discours de la méthode, IV.

(٢) Barnes - Social institutions, New York 1942, P. 212.

(٣) Lucas - A short history of civilization, New York 1943. P.P. 635 - 652.

(٤) Comte - Discours sur l'esprit positif Paris 1898, II. partie, P. 56.

وإنما هى غيرية اجتماعية لها حدود معينة هى حدود البيئة والفترة التى يعيش فيها الإنسان فى مجتمع معين : فغرضها قريب لا بعيد : هو تكوين الإنسان ليكون مواطناً صالحاً ، ولا تنشد تهيئته ليكون حكيما عاقلا أو قديساً كاملا . ولهذا يعرف دوركيم التربية قائلا : « هى ما تلقنه الأجيال الناضجة للأجيال التى لم تنضج بعد لمواجهة الحياة الاجتماعية [١] .

عبد العزيز عزت

(١) Durkheim - Education et Sociologie, P. 49.

منشورات جماعة علم النفس التكاملي

المنشأة برعاية المغفور لها الأميرة شيوه كار

يشرف على إصدارها الأستاذ الدكتور يوسف مراد

ظهر منها :

علم النفس الفردى : أصوله وتطبيقه تأليف الأستاذ إسحق رمزى
الثمن ٣٥ قرشاً

مشكلة السلوك السيكوبانى تأليف الدكتور صبرى جرجس
الثمن ٤٥ قرشاً

مبادئ علم النفس العام تأليف الدكتور يوسف مراد
الثمن ٥٠ قرشاً

مدارس علم النفس المعاصرة تأليف روبرت ودورث وترجمة
الأستاذ كمال دسوقى .
الثمن ٥٠ قرشاً

الأسس النفسية للإبداع الفنى تأليف الأستاذ مصطفى سويف
الثمن ٥٠ قرشا

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر